

إبراهيم (ع) وبناء الشخصية الإنسانية



هذا الإنسان الذي كرّمه الله وفضّله على كثير ممّن خلق تفضيلاً؛ حين يعرض عن الحقّ ويهمل العقل الذي أكرمه الله به، ويرضى لنفسه الهبوط إلى ما دون ذلك؛ يتردّد إلى ما هو أشبه بالمسخ في تفكيره، ونظره إلى الأمور، كائناً ما كان شأنها في عاجله وآجله.

أرأيت إلى قوم إبراهيم (ع)، بعد أن فجأهم بالحقيقة آخر المطاف، وبيّن لهم بالحجة الدامغة، أنّهم في عبادتهم للأصنام في ضلال مبين، على شاكلة آبائهم الذين - بما هم عليه من ذلك - في ضلال مبين أيضاً؛ لما أنّهم يتدحرجون - بعماية - على هذه الطريق المنكوسة والعياذ بالله!!

ثمّ: ألم ترى إلى ما كان منهم؟ لقد كان منهم أن استنكروا ما قاله (ع) وسألوه سؤال استنكار محذرين منذرين: (أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ) (الأنبياء / 55)، وذلك ما جاء في قوله تعالى: (قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ) (الأنبياء / 54-55).

هكذا يجادلونه بهذا العبث في إهمال لأبسط قواعد الحوار، وما يقضي به العقل السليم من النظر في كلام المخالف واحترام الدليل.

نعم، ألا تستوقفك هذه الكلمات من قولهم: إنَّ هذا ثمرة الخضوع لتزيينات الشيطان، وما يزخرف من العبودية للهوى وتقليد الآباء والأجداد بلا نظر أو تمحيص.

سبحان الله! يكلامهم الناصح الأمين من أرفع مستوى في قضية أصيلة من قضايا الإنسان تتعلق بمعتقد، وترتبط إيَّاهما ارتباط بوجوده وإنسانيته؛ لأنَّه إذا تخلَّى عن العبودية لله: فقد تخلَّى عن حقيقة وجوده الإنساني، وحرَّيته الحقيقية، وناهض فطرته التي فطره الله عليها... يكلامهم - صلوات الله وسلامه عليه - من هذا المستوى، فيقابلونه بهذا التساؤل المقيت الذي يجعل الاهتمامات الكبيرة على الصعيد العام، نوعاً من العبث الذي عبروا عنه باللعب، دون شيء من الحياء!!

ونحن نرى في دنيا الواقع اليوم: أنَّ كلَّ أولئك الذين يحلو لهم أن يتشددوا بالإلحاد والكفر بمن خلقهم وخلق الكائنات كلها، وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة: يقعون في شرك العبودية لغيره من الأشخاص، أو النفس، أو المال، أو أي غرض من أغراض الدنيا علا أو سفلاً! بل قد دخلت هذه العبودية لغير الله - مع ما يكتنفها مملاً ذكرنا - في صلب تنظيمات منمقة مسؤولة، ولكن تحت عناوين أخرى في ظل مبادئ تنكر وجود الله. وهل بعد هذا الضياع للإنسان، وكرامته وحرَّيته من ضياع؟ بل وهل بعد هذا العدوان على أصل الفطرة عنده من عدوان؟!

أمَّا إبراهيم (ع): في تعبير عن البنية الفكرية السليمة، والنظرة الإنسانية التي تصف - فعلاً - صورة تكريم الله للإنسان، والمنهج الذي يضع العقل موضعه ليعمل هو، وينهزم التقليد الأعمى الموروث... أمَّا إبراهيم: فقد نصح لقومه ووضع الحقيقة المعقولة المقبولة المستندة إلى الدليل الناصع بين أيديهم لو كانوا يعقلون. وقد جاء التعبير عن ذلك كله بقوله جل شأنه: (قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ الشَّجَاهِدِينَ) (الأنبياء / 56).

ويلاحظ أنَّ خليل الرحمن (ع) طرح الحقيقة مصحوبةً بدليلها؛ بل ربكم المستحق للعبادة الذي لا إله غيره: وهو فاطر السماوات والأرض الذي فطرهنَّ خلقاً سواً لا عوج فيه ولا أمّات.

فخالق الكون بما فيه من إنسان وسماوات وأرضين وما حوت من المخلوقات الذي ابتداءً خلقهنَّ، وهو الخالق لجميع الأشياء.. هو - سبحانه - الجدير بأن يُعبد وتعنو الوجوه لعظمته، وتعفّر الحياة بالسجود بين يديه.

وانظر إلى اعتزاز المؤمن بربه، وبالحق الذي يدعو إليه؛ يقول إبراهيم (ع): (وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ ذِكْرُكُمْ مِنْ الشَّجَاهِدِينَ)، أي وأنا أشهد أن لا إله غيره ولا ربَّ سواه.

إنَّ كلَّ أولئك الذين أوصدوا دون عقولهم أبواب التدبر، وأغلقوا - عامدين - منافذ الفهم والتفكير: غير مقبولي الشهادة في مثل هاتيك القضية الكبرى، ولكن مقبول الشهادة: هو الإنسان السوي الذي أزال الغشاوة عن عينيه، وترك للفطرة التي فطر الله الناس عليها أن تستجيب وتعمل، وأطلق العنان بدقة وتجرد، فنظر واستقرأ وتدبّر.

من أجل ذلك أعلن إبراهيم في قومه على صورة لا تحتل اللبس (وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ ذِكْرُكُمْ مِنْ الشَّجَاهِدِينَ).

أمَّا بعد: فإنَّ كلَّ ما يدور على أرضنا في العالم الإسلامي، وما يدور في العالم من حولنا مملاً يتعلق بالمسلمين بشكل مباشر أو غير مباشر: يستدعي بناء الشخصية المتوازنة التي تتحسّس الواقع من خلال العقيدة ومنهج التفكير السليم، وتنطلق بثبات وطمأنينة في مختلف آفاق العمل البنّاء؛ لأنَّ الشخصية القلقة التي ضاع صاحبها، وهوت إلى القاع بإعراضه عن العقيدة السليمة عقيدة الفطرة. وإدباره عملاً يقول به العقل السليم: هو عبء على الأُمَّة ولون من ألوان الركام المؤذي على الطريق.

وإنَّ إبراهيمَ فيما شهد للحقيقة، وفيما حكم بالضلال على المستهترين بعقولهم، المستهينين بفطرهم؛
قد رشَّحَ لمسيرة الإنسان، مَن يكون الكفاء من بني الإنسان.

وإنَّ من إعجاز القرآن: ما أغنى - بحمد الله - البشرية بتجربة القرون التي عاناها الإنسان، ودُقَّ -
لأُمَّة غنيت هذا الغناء: أن تنمي فاعليتها الذاتية وتستأنف مسيرة الحقِّ المضيِّع من جديد.

المصدر: كتاب القصص القرآني وعطاء الشباب القلب.. والعقل.. والساعد